عن الحب

لا يمكنني التحدّث عن الحب، إلا بتذكّر ذلك اليوم القائظ من شهر تموز. حين صعدت إلى الباخرة التي ستنقلني من اللاذقية إلى أثينا في رحلة بحرية تستغرق ليلتين. كنتُ في العشرين، تحف بي أحلام الحب الرومانسي الوردية، وكنتُ أذرف الدموع تأثّراً بالأغاني الطافحة بآلام الحب. كنتُ أنتظر آلام الحب أكثر مما أنتظر فرحه، وكان رجل الحلم يتبدّل من وقت لآخر متقمصاً شخصيّة نجوم السينما في ذلك الوقت، خاصة ريتشارد جير بطل فيلم (قصة حب).

كانت الباخرة تغص بالركاب، وحين جلستُ في المطعم بجوار عجوزين لتناول طعام العشاء، وفرقة يونانية تعزف موسيقى تفجّر الأحاسيس في ينابيعها العميقة في الروح، تنبّهتُ فجأة لعينين ساحرتين عسليّتين تراقبانني باهتمام، أذكر كيف انخلع قلبي من مكانه، كأنه هوى في بئر عميقة، كان شاباً -اعتقدتُ أنه يوناني- سحرني بجاذبيته، تشابكت نظراتنا بوَله غامض، وعجزنا عن فك اشتباكها، أحسستُ كيف سخنت يداي وصارتا كرغيفين طازجين، وكيف تدفّق الدم في وجنتيّ، وخلال دقائق ما عدتُ أعي شيئاً سوى حضور ذلك الشاب الغريب الطاغي. نمتُ تلك الليلة وأنا أشعر أن حمى أصابتني عرفتُ فيما بعد أن هذه الحالة تُسمى صعقة الحب، تمنيّتُ لو تتوه الباخرة في البحر، ولا تصل إلى شاطئ الأمان الممل.

هيفاء بيطار

في اليوم التالي، لم تعد نظراتنا مجرد انجذاب، بل صارت حباً صارخاً، ولهاً لا يمكن تفسيره. غريب أننا لم نفكّر بالتحدّث إلى بعضنا. ربما فكّرنا أننا لا نتحدث اللغة ذاتها. ترى ألا يمكن للأيدي أن تخلق لغتها. في فجر اليوم الثالث، وصلت الباخرة إلى الشاطئ اليوناني، وبدأ حزن شفيف يرتشح من وجهينا –الغريب وأنا– كنا نقف متجاورين على سطح الباخرة، نمسك الحبل الثخين، فجأة اقترب مني وسألني بالإنكليزية: من أين أنتِ؟

قلتُ له وأنا أتذوّق صوته: من سوريا.

فقال بحماسة: أنا من العراق، واسمي مصطفى.

رشحت عيوننا بالدموع، وقد أدركنا بلاهتنا طوال الرحلة.

حين أتذكّر تلك الحادثة، يدهشني الانجذاب الهائل والغامض بيني وبين الغريب. ما الذي يُكهرب رجلاً إلى امرأة؟ ما سرّ تلك الشرارة الإلهية التي تندلع فجأة في الروح، كلهب العليقة...؟ ما سرّ تلك الصعقة التي تُصيب الإنسان فتنقله من جاذبية إلى جاذبية، كما لو أنه إلكتروناً يغادر مداره إلى مدار آخر!

كم تمنيّتُ فيما بعد لو تحصل معي حالة مشابهة. لكن للأسف بدأ عقلي ينمو على حساب قلبي. وكم كان يؤلمني أن القلب يريد أن يجرّني باتجاه، والعقل بالاتجاه المعاكس. كنتُ مُلقّنة بمبادئ العيش وبالتالي الحب. ومن قلب تمرد مراهقتي كان يكمن رضوخي، كان عليّ أن أتطابق تماماً مع توقّعات الآخرين، هم الذين يحبونني ويعرفون مصلحتي، هم الذين اشترطوا علي أن أحب شاباً مسيحياً ويستحسن أن يكون من طائفتي روم أرثوذكس، وذا سوية اجتماعية معينة. كنتُ أحارب بقوة وشراسة كل بذرة حب يمكن أن تنمو تجاه شاب من غير ديني. لدرجة تمنيّت لو يخترع العِلم لقاحاً يقيني حب شاب مسلم. تلك الأفكار الضاغطة القمعية المسيطرة عليّ جعلتني أفقد الكثير من حيوية العفوية الأساسية لحب حرّ ومُعافى.

ظلّ الحب في حياتي مقموعاً كالحرية، حتى أدركت أن الحب والحرية وجهان لعملة واحدة. الحب في حياتي كان طائراً في قفص، لا يستطيع أن يحلّق إلا ضمن قضبان. لا يمكنه أن يلامس الغيم، وأن ينتقل من غصن إلى غصن، وكأن تغريده كلّه شجناً.

لم أكن وقتها أملك النضج الكافي ولا الثقافة النفسية لأفهم نسيج حياتنا، النسيج الذي يحكمه النظام الأبوي، والعقلية الضاغطة التي يجب أن نعيش ضمنها.

كانت السمعة كسوط مسلّط على رقبتي، يجب أن تظلّ سمعتي كالمسك والفل، ولا يرتبط اسمي باسم شاب، الحب يجب أن يكون له هدف نبيل وهو الزواج، وإن فشل الحب، فالفتاة تدفع الثمن –سوء السمعة أما الشاب فيكسب خبرة جنسيّة–.

لم أستطع أن أخلق نفسي، وأفك نفسي قطعة قطعة وأعيد تركيبها إلا بعد سنوات طويلة حين أطلقت صرخة روحي وكتبتُ (امرأة من طابقين). تلك الرواية التي طرحت فيها كل المواضيع الإشكالية (حب فتاة مسيحية لشاب مسلم) وكيفية زرع العقلية الدينية في عقول الشباب.

بكل أسف أقول إن طعم الحب كان ممزوجاً دوماً بالمرارة، بسبب ذلك الشرخ الكبير بين المرأة والرجل في مجتمعنا، بسبب العقلية الاجتماعية المجحفة بحق المرأة. فالمرأة المتحررة هنا، والتي تشرّع نفسها للحب والحياة، تُلصق بها أبشع الصفات، حتى أن كثيراً من الناس –وخاصة المثقفين– ينظرون إليها كعاهرة! وهناك الكثير من الرجال المثقفين يلذ لهم التحدث عن التجارب العاطفية والجنسية للنساء المتحررات، خاصة البارزات في مهنهن! يتحدثون عنهن بقلة احترام وسخرية ولا يرضى أي منهم اتخاذ إحداهن زوجة له!

الرجل العربي بشكل عام يريد زوجة للخدمة، مطيعة، تدور في فلكه. وامرأة عشيقة يمارس معها ملذات الحب، ويغتني بها بالحوار الدافئ العميق.

لكن ما يسعدني ويشعرني بالغبطة أن الحب كامن دوماً في النفس، وأن الإنسان يتغير لكن الحب يبقى. وأن روعة الحب أنه لا يخلق مناعة، فنحن جاهزون دوماً لهذا الشعور العذب، الجميل، الذي يجمّل الحياة ويجعل لها معنى. الحب كامن في الروح كبذرة غافية. إنه يجعلنا قادرين على ترميم أحلامنا مهما تكرر انكسارها.

الحب هو نكهة الأشياء... هو العينان الجديدتان اللتان نرى بهما العالم. وهو انتظارنا الأبدي.